الشعراء :

ابو الطيب المتنبي

٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

لم يحظ شاعر من شعراء العرب بالاهتمام والدراسة قديماً وحديثاً بقدر ما حظي به ابو الطيب المتنبي . ولعلّ شهرته في مملكة الشعر جاءت من جودة نظمه الذي يُسحر القاريء ويجعله منقاداً له في رضىً واعجاب . يُضاف الى ذلك ، أنّهُ ينطقُ عن خواطر الناس ، كما قال القاضي الفاضل .(٨٨٣)

سيرته :

أبو الطيب احمد بن الحسين بن مُرّة بن عبدالجبار الجُعفي الكندي الكوفي . أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجُعفي الكندي الكوفي .(٨٨٤) وجُعفي الذي ينسب اليه هو جُعفي بن سعد العشيرة من مُذْبح من كهلان من قحطان . فهو من أصلٍ عربي قحطاني . خالص النسب أباً وأماً .

فتح ابو الطيب عينيه على الدنيا سنة ٣٠٣ للهجرة في حي كندة بالكوفة . وهو حيٌّ نزله المهاجرون من العرب الذين نزحوا ايام الفتوح الى هذه البقاع . وهم من أصل يماني فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الاولى للذكرى والحنين .(٨٨٥) وظنّ من لاتحقيق إعنده أن المتنبي من قبيلة كندة . وفي شعره ذكريات في هذا الحي وكان مفارقاً له . قال يحنّ اليه ،

أمُنيّ السُّكونَ وحَضْرَموتا ووالدتي وكندة والسَّبيعا(٨٨٦)

كان المتنبي فقير المنشأ . قيل ان أباه كان يسمى عيداناً . وكان سقّاء بالكوفة يستقي على بعيرٍ له . وفقدَ هذا الأبُ المعينَ على بؤس الحياة . ولا نعرف شيئاً عن والدته . ولعلها ماتت في حداثته . ولكن جدّته لأمه وهي عربية هَمْدانية كانت من النساء الصالحات سهرتْ على تربيته وتنشئته والاحتفاء به .

(٨٨٣) الوافي المرقوم ص ٥٧

(٨٨٤) وفيات الاعيان ١ : ٩٠

(٨٨٥) المتنبي للدكتور زكي المحاسني ص ٢٢

(٨٨٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٢٢ ، والاسماء المذكورة في البيت هي أماكن في الكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنونها

رثاؤه :

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعلّ من اجلّها وأكثرها مرثيتين . أولاهما في جدّته التي عُنيت بتربيته . وأظلّته بعطفها وحنانها . بعد و أمه وهو خدث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أخت سيف الدولة لما كانت عليه من صفات حميدة . ولما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي

رثاؤه :

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعلّ من اجلّها وأكثرها إثارة مرثيتين . أولاهما في جدّته التي عُنيت بتربيته . وأظلّته بعطفها وحنانها . بعد وفاة أمه وهو خدث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أخت سيف الدولة لما كانت عليه من صفات حميدة . ولما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي مذة إقامته بحلب . لقد رثاها وفاة ، لأنها كانت تُمثلُ الفتاة العربية الأصيلة المعروفة بكرمها ونبلها وإبائها . بخلاف من ذهب الى انه كان يحبها ويعشقها .(٩٣١)

كان المتنبي يحبُّ جدّته وهي تحبه . وحينما فارقها تألمتْ وجزعتْ وكادتْ أن تيأس بعد طول الغيبة . فكتب اليها كتاباً فرحتْ به وأكبّتْ على تقبيله حتى أصابتها الحمى من فرط السرور فماتتْ . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفسه . دفعته الى نظم قصيدة تطفح بالحزن والأسى على فقيدته . منها قوله(٩٣٢) ،

لكِ الله من مفجوعةٍ بحبيبها قتيلةِ شَوْق غيرِ مُلْجعها وَصْما
أحنُّ إلى الكأس التي شربتْ بها وأهوى لمثواها التُّرابَ وما ضَمّا
بكيتُ عليها خيفةً في حياتِها وذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحبِهِ قِدْما
أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلبي السُّرورُ فإنّني أعُدُّ الذي ماتتْ به بعدها سُمّا

أما قصيدته في خولة فهي تُعبر عن عاطفة صادقة . وحُزن عميق . وألم شديد . وقد استهلّها بمطلع رائع وجميل هو أقرب الى المديح منه الى الرثاء(٩٣٣) :

يا أخت خير أخ يابنت خير أب كنايةٌ بهما عن أشرف النسبِ

وفي القصيدة بيتان يُستشهدُ بهما كثيراً في مواقف الحزن حتى سارا سير الأمثال في حياة المتنبي نفسه كما يقول الدكتور طه حسين(٩٣٤) .

(٩٣١) انظر اسماء هؤلاء الباحثين في كتاب « الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٧٣ ـ ٧٩ .
(٩٣٢) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٦٨ .
(٩٣٣) نفسه ١ : ٦٢ .
(٩٣٤) مع المتنبي ص ٢١٢ .

طوَى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزِعْتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُهُ أملاً شَرِقْتُ بالدمع حتى كاد يَشْرَقُ بي

ونراهُ يُعزّي سيف الدولة ويُسمّيه « فتى الفتيان » بفقيدته الغالية التي كانت فخر الفتيات الماجدات . فهي من اللواتي يطلبنَ المجدَ والعُلى والسؤدد بخلاف اللواتي ينشدنَ اللذّة واللهو واللعب :

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مُذْ نُعيتْ فكيفَ ليلُ فتى الفِتيانِ في حلبِ
يظنُّ أنّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنّ دمعَ جفوني غيرُ منسكبِ
بلى وحرمةِ من كانتْ مراعيةً لحرمةِ المجدِ والقُصّادِ والأدبِ
وهمُّها في العُلى والمجدِ ناشئةً وهمُّ أترابها في اللهوِ واللُّعبِ
وإنْ تكنْ خلقتْ أنثى لقد خلقتْ كريمةً غير أنثى العقلِ والحسبِ

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي رثى أخت سيف الدولة الصُغرى قبل وفاة خولة بثمانية أعوام بقصيدة مطلعها(٩٣٥) ،

إنْ يكن صَبْرُ ذي الرزيّةِ فضْلا تكُنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجلاّ

وضمن هذه المرثاة . كثير مراثيه الأخرى . نظرات ثاقبة وخطرات قيمة مثل قوله :

وصفه :

لم يكن أبو الطيب المتنبي مكثراً في الوصف . وقد جاء بـه في مطالع القصائد أو في ثناياها ، فإنه وصف نفسه في تعاليها وشموخها وطموحها . ووصف أخلاق الناس وطبائعهم . وبعض مظاهر الطبيعة . والوقائع والحروب التي شاهدها مع سيف الدولة ...

إنَّ حظ الطبيعة قليل في شعره . مع إنه عاش في أجواء جميلة . فله أبيات في وصف بحيرة طبرية ذات الماء الهادىء والغور الدافىء(٩٤٣) . وكذلك وصف شعب بوّان الذي يقع في أحضان الطبيعة الساحرة . فها هو ذا يصف تساقط قطرات الندى من أغصان الاشجار على اعراف الخيل وهو سائر في هذا الشعب وكأنّها حَبّاتُ جمانٍ بديعة . وظلال هذه الأشجار دنية حرُّ الشمس ما خلا أقباس من الضياء تطالعه كالدنانير ولكنها لا تُمسكُ باليد . ويُحره منظر الثمار المتدلية الجنية وصوت المياه المنسابة على الحصى الذي يشبه صوت الحلي في معاصم الحسان(٩٤٤) .

غدونا تَنفضُ الأغصانُ فيها ... على أعرافها مثل الجُمانِ
فَسِرْتُ وقد حجبنَ الشمس عنّي ... وجئنَ من الضِّياء بما كفاني
وألقى الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تَفِرُّ من البنانِ
لها ثمرٌ تُشيرُ اليكَ منها ... بأشرية وقفن بلا أوانِ
وأمواهٌ تصِلُّ بها حصاها ... صليلَ الحَلي في أيدي الغواني

ومن بارع وصفه الذي تناقلته الكتب الأدبية وصف الحمى التي شبهها بالفتاة الحسناء التي لا تخلفُ مواعيد زيارتها في الليل(٩٤٥) :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً ... فليس تزورُ إلاّ في الظَّلام
بذلتُ لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتتْ في عظامي
كأنَّ الصبحَ يطردُها فتجري ... مدامِعُها بأربعةٍ سجام
أراقبُ وقتها من غيرِ شوقٍ ... مراقبةَ المشوقِ المستهام
ويصدقُ وعدُها والصُّدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العظام

(٩٤٣) ينظر شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٣٩ .
(٩٤٤) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٥٨٣ .
(٩٤٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٥٠٠ .

اما الوقائعُ والحروبُ فكان بارعاً في وصفها . مجيداً في تصويرها ونقلها للقاريء(٩٤٦) . مثل قوله في وصف الفرسان الشجعان الذين تراهم قليلين في عددهم . كثيرين عند لقاء الأعداء :(٩٤٧) .

سأطلبُ حقي بالقنا ومشايخٍ ... كأنّهم من طولِ ما التثموا مُرْدُ
ثقالٍ اذا لاقوا خِفافٍ اذا دُعوا ... كثيرٍ اذا شدُّوا قليلٍ اذا عُدُّوا

وانظر الى هذا الجو الرائع الذي أبدع المتنبي في تصويره في لوحة كاملة تشغل العين والسمع والنفس(٩٤٨) :

اتوكَ يجرُّونَ الحديدَ كأنّهمْ ... سروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمْ
إذا برقوا لم تُعرفِ البيضُ منهمُ ... ثيابهمُ من مثلها والعمائمْ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ ... وفي أُذُنِ الجوزاء منه زمازمْ

فخره :

كان المتنبي معتداً بنفسه . فخوراً . لا يطأطيء رأسه لأحد مهما كانت

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملاً شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرقُ بي

ونراهُ يُعزّي سيف الدولة ويُسلّيه « فتى الفتيان » بفقيدته الغالية التي كانت فخر الفتيات الماجدات . فهي من اللواتي يطلبن المجدَ والعُلى والسؤدد بخلاف اللواتي ينشدنَ اللذّة واللهو واللعب :

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مُذْ نُعيتْ فكيفَ ليلُ فتى الفتيانِ في حلبِ
يظنُّ أنّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنّ دمعَ جفوني غيرُ منسكبِ
بلى وحرمةِ من كانتْ مراعيةً لحرمةِ المجدِ والقُصّادِ والأدبِ
وهمُّها في العُلى والمجدِ ناشئةً وهمُّ أترابها في اللهوِ واللُعبِ
وإنْ تكنْ خلقتْ أنثى لقد خلقتْ كريمةً غير أنثى العقلِ والحسبِ

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي رثى أخت سيف الدولة الصُغرى قبل وفاة خولة بثمانية أعوام بقصيدة مطلعها(٩٣٥) .

إنْ يكنْ صَبْرُ ذي الرزيّةِ فضْلا تكُنِ الأفضلَ الأعزُّ الأجلاّ

وضمن هذه المرثاة . كائر مراثيه الأخرى . نظرات ثاقبة وخطرات قيمة مثل قوله :

الهُ العيشِ صحّةٌ وشبابٌ فإذا ولّيا عن المرء ولّى
أبداً تستردُّ ما تهبُ الدُنـ ـيا فيا ليتَ جودها كان بُخلا

غزله :

انصرف المتنبي منذ مطلع شبابه الى طلب المجد والعلى . والانشغال بمشكلات قومه الذين عاشوا تحت وطأة الظلم والقهر . ولم يلتفت الى الغانيات ولم يحفل بمعاشرتهن والتغزل بهنّ . وقد وضّح السبب بنفسه فقال(٩٣٦) :

---

(٩٣٥) شرح ديوان المتنبي ٢ ، ٩٦ .
(٩٣٦) نفسه ١ ، ٢٧١ .

لولا العُلى لم تجبْ بي ما أجوبُ بها وجناءُ خرْفٌ ولا جرداكُ قيدود(٩٣٧)
وكان أطيبَ من سيفي معانقةً أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأمالِيدُ(٩٣٨)
لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي شيئاً تُتيمهُ عينٌ ولا جيدُ

ومع ذلك نجد له غزلاً رقيقاً شفافاً . ولا سيما في مطالع قصائده . وقد ذهب بعض الباحثين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ الى أنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة . وهو في تقديرنا ظنٌّ لا يستند الى دليل ثابت ومقنع . ولعلّ قدرته الفائقة في التحدُّث بلغة العشق والغرام هو الذي دفع هؤلاء الباحثين الى القول بأنه كان محباً عاشقاً . مثل قوله في صباه في مطلع قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن محمد الأزدي(٩٣٩) :

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرَقُ وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
جهدُ الصّبابةِ أن تكون كما أرَى عينٌ مسهّدةٌ وقلبٌ يخفقُ
ما لاح برقٌ أو ترنّم طائرٌ إلاّ انتشيتُ ولي فؤادٌ شيّقُ
جرّبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي نارُ الغضى وتكلُّ عما تُحرقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُهُ فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعشقُ

وكان ذوق المتنبي بدوياً . يميل الى الجمال البدوي الطبيعي البعيد عن البهرجة والافتعال والزينة المصطنعة الممقوتة . مثل قوله (٩٤٠) :

ما أوجُهُ الخضرِ المستحسناتُ به كأوجهِ البدوياتِ الرّعابيبِ(٩٤١)
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ(٩٤٢)

لولا العُلى لم تجبْ بي ما أجوبُ بها وجناءُ حَرْفٌ ولا جرداكُ قيدود(٩٣٧)
وكان أطيبَ من سيفي معانقةً أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأمالِيدُ(٩٣٨)
لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كَبِدي شيئاً تُتيمهُ عينٌ ولا جيدُ

ومع ذلك نجد له غزلاً رقيقا شفافاً . ولا سيما في مطالع قصائده . وقد ذهب بعض الباحثين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ الى أنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة . وهو في تقديرنا ظنٌ لا يستند الى دليل ثابت ومقنع . ولعلَّ قدرته الفائقة في التحدُّث بلغة العشق والغرام هو الذي دفع هؤلاء الباحثين الى القول بأنه كان محباً عاشقاً . مثل قوله في صباه في مطلع قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن محمد الأزدي(٩٣٩) :

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرَقُ وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
جهدُ الصَّبابةِ أن تكون كما أرى عينٌ مسهدةٌ وقلبٌ يخفقُ
ما لاح برقٌ أو ترنَّم طائرٌ إلاَّ انثنيتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ
جرُبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي نارُ الغضى وتكلُّ عما تُحرقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُهُ فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعشقُ

وكان ذوق المتنبي بدوياً . يميل الى الجمال البدوي الطبيعي البعيد عن البهرجة والافتعال والزينة المصطنعة الممقوتة . مثل قوله (٩٤٠) :

ما أوجُهُ الحضرِ المستحسناتُ به كأوجهِ البدوياتِ الرَّعابيبِ(٩٤١)
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ(٩٤٢)

---

(٩٣٧) الوجناء : الناقة الصلبة الشديدة . الحرف : الضامرة . الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . القيدود : الطويلة العنق .

(٩٣٨) الغيد : جمع غيداء . وهي المتثنية ليناً . الأماليد : الناعمات المستويات التامات . يقول : لولا طلب العلى لم أختر معانقة السيف وأعدل عن النساء الحسان اللواتي يشبهن رونقه في بياض البشرة .

(٩٣٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٧٧ .

(٩٤٠) نفسه ١ : ١١٩ .

(٩٤١) الرعابيب : جمع رعبوبة . وهي المرأة الطويلة الممتلئة .

(٩٤٢) يقول : ان حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالحيلة والعلاج . أما حسن البدويات فهو خلقة . لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتيال .

وصفه :

لم يكن أبو الطيب المتنبي مكثراً في الوصف . وقد جاء به في مطالع القصائد أو في ثناياها ، فإنه وصف نفسه في تعاليها وشموخها وطموحها . ووصف أخلاق الناس وطبائعهم . وبعض مظاهر الطبيعة . والوقائع والحروب التي شاهدها مع سيف الدولة ...

إنَّ حظ الطبيعة قليل في شعره . مع إنه عاش في أجواء جميلة . فله أبيات في وصف بحيرة طبرية ذات الماء الهادىء والغور الدافىء(٩٤٣) . وكذلك وصف شعب بوّان الذي يقع في أحضان الطبيعة الساحرة . فها هو ذا يصف تساقط قطرات الندى من أغصان الاشجار على اعراف الخيل وهو سائر في هذا الشعب وكأنَّها حبّاتُ جمانٍ بديعة . وظلال هذه الأشجار دنية حرُّ الشمس ما خلا أقباس من الضياء تطالعه كالدنانير ولكنها لا تُمسكُ باليد . ويُسحره منظر الثمار المتدلية الجنية وصوت المياه المنسابة على الحصى الذي يشبه صوت الحلي في معاصم الحسان(٩٤٤) .

غدونا تنفضُ الأغصانُ فيها على أعرافها مثلَ الجُمانِ

فخره :

كان المتنبي معتداً بنفسه . فخوراً . لا يطأطيء رأسه لأحد مهما كانت منزلته . ويلاحظ القارئ بوضوح هذه الظاهرة في شعره . ولا سيما في مديحه . كي لا يقال انه سائل ذليل أو محروم هو أقل منهم قدراً . وقد ذهب أحدُ الباحثين الى انه « كان ناقماً على الناس ، لأنه يحبُّ نفسه . ولذا كان يُصور نفسه دائماً بصورة المحسود المغبون . والناس من حوله حسدة ظالمون . أقزام يقحمون أنفسهم في مواكب العمالقة (٩٤٩) » . ولعل هذه النقمة ـ كما نرى ـ متأتية نتيجة انتكاسه في الحصول على مطالبه التي كان يسعى من أجلها ولم ينلها . إضافة الى أنه كان يرى أناساً لا يضاهونه في شخصيته وعلمه ومؤهلاته قد أخذوا مواقع متميزة في الحياة لا تليق بهم .

افتخر المتنبي بنفسه كثيراً مثل قوله(٩٥٠) :

لا بقومي شرُفْتُ بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي
إنْ أكنْ مُعجباً فعُجْبَ عجيبٍ ... لم يجدْ فوقَ نفسه مِن مزيدِ

---

(٩٤٩) ينظر فصل «شعر الحرب عند المتنبي» في كتاب شعر الحرب في ادب العرب ص ٢٦٢-٢٨٩.
(٩٤٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٣٧ .
(٩٤٨) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٦ .
(٩٤٩) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٤٢ .
(٩٥٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٠٨ .

وافتخر بعلو همته ورفعة مكانته(٩٥١) :

اذا غامرت في شرفٍ مروم ... فلا تقنع بما دون النُّجوم
فطعمُ الموتِ في امرٍ صغيرٍ ... كطعم الموت في امرٍ عظيمِ

وتباهى بعلمه وادبه(٩٥٢) :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
انامُ ملءَ جفوني عن شواردها ... ويسهرُ الخَلْقُ جرّاها ويختصمُ

واشاد بقوته وجلادته وكثرة صبره(٩٥٣) :

اطاعنُ خيلاً من فوارسها الدّهرْ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصَبرْ
وأشجعُ منّي كلَّ يوم سلامتي ... وما ثبتتْ الاّ وفي نفسها أمرْ
تمرستْ بالآفات حتى تركتْها ... تقول امات الموتُ ام ذُعِرَ الذُعر

لقد كثر زهوه . واسرف في التحدث عن نفسه . واشتد غروره وتعاليه وشعوره بالعظمة والقوة . حتى انه قال مخاطباً سيف الدولة(٩٥٤) :

وما انا إلاّ سمهريٌّ حملتهُ ... فزيّنَ معروضاً وراعَ مُسدّدا
وما الدّهرُ الاّ من رواةِ قلائدي ... اذا قلتُ شعراً اصبحَ الدّهرُ مُنْشدا
فساربه من لا يسير مشمراً ... وغنّى به من لا يُغنّي مُغرّدا

أجزني اذا أنشدتُ شعراً فانّما ... بشعري اتاك المادحون مُردّدا
ودعْ كلَّ صوتٍ غير صوتي فانني ... انا الصائحُ المكحيُّ والاخرُ الصَدى

حكمه :

عاصر المتنبي فترة عصيبة من حياة امتنا في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة . وقد اكتسب تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الاحداث . وكانت حصيلة تلك التجربة . الى جانب ثقافته العميقة . حكماً بليغة سارت على الالسنة حتى قيل : « ماجتمع اثنان يتحدثان الاّ كان المتنبي ثالثهما » .

مميزات شعره :

يعدُ ابو الطيب المتنبي من فحول الشعراء . وفرسان البيان . الذين انجبتهم الامة العربية . شغل الباحثين والنقاد في عصره وبعده . وصدق ابن رشيق في قوله : « ملأ الدُنيا . وشغل الناس(٩٥٧) » . ولا عجب حين قال المتنبي(٩٥٨) :

وتركُك في الدنيا دوياً كأنّما تداول سمع المرء انملهُ العشْرُ

انه حقاً ترك دوياً . وخلق ضجةً . واكبر شاهد على ذلك وفرة شروح ديوانه . وكثرة الدراسات والبحوث التي كتبت في سيرته وشعره بين مادح وقادح . وحسبنا قول ابي منصور الثعالبي : « ليس اليوم مجالس الدرس . اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس . ولا اقلام كتاب الرسائل . اجرى به من السن الخطباء في المحافل . ولا لحون المغنين والقوّالين . اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد الفت الكتب في تفسيره . وحلّ مشكلة وعويصه . وكُسّرت الدفاتر على ذكر جيدة ورديئة . وتكلّمَ الافاضلُ في الوساطة بينه وبين خصومه . والافصاح عن ابكار كلامه وعونه(٩٥٩) . وتفرقوا فرقاً في مدحه والقَدْح فيه والنضْح(٩٦٠) عنه . والتعصب له وعليه . وذلك اول دليلٍ دلّ على وفور فضله . وتقدم قدمه . وتفرده عن اهل زمانه . بملك رقاب القوافي . ورقّ المعاني . فالكامل من عدت سقطاته . والسعيد من حُسِبتْ هفواته . وما زالت الاملاك تهجى وتمدح(٩٦١) » .

كان المتنبي ذكياً فطناً ذا ثقافة عالية(٩٦٢) . أستطاع ان يجمع في شعره بين الصنعة والطبع . وان يوفّق بين الاحساس والخيال . وان يوائم بين العلم والتجربة . ويلائم في اغلب شعره بين المطلع والتخلص والخاتمة . ومن اظهر مزايا شعره الشرح والتوليد . والميل الى الاسلوب الخطابي . والمبالغة التي تخرج احياناً الى المستحيلات . قال ابن رشيق القيرواني : « فاذا صرت الى ابي الطيب صرت الى اكثر الناس غلواً . وابعدهن فيه همّةً . حتى لو قَدَر ماأخلى منه بيتاً واحداً . وحتى تبلغ به الحال الى ماهو عنه غنى . وله في غيره مندوحة . كقوله :

---

(٩٥٧) العمدة ١ : ١٠٠

(٩٥٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٥٢

(٩٥٩) العون : المتزوجات من النساء

(٩٦٠) النضح عنه : اراد الدفاع عنه

(٩٦١) يتيمة الدهر ١ : ١٢٧ .

(٩٦٢) ينظر : ثقافة المتنبي واثرها في شعره ص ٥٥ ـ ٢٦٧

يترشفنَ من فمي رشفاتٍ هنّ فيه احلى من التّوحيدِ

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه . وقوله :

اذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ جدارٌ مُعلّى او خباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المنطب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو في الثريا صار في الثرى ! وانما اراد الحاضرة والبادية(٩٦٣) » .

ومن مميزات شعره التماسك الشديد . والترابط الوثيق . وتسلسل الافكار وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية . مثل قوله معاتباً سيف الدولة :(٩٦٤)

ياأعدل الناسِ الاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمن شحمَه ورَمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره اذا استوتْ عندهُ الانوار والظُلَمُ

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد . واستخدام الالفاظ الغريبة . والتصرف في اللغة . واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة . واخذ معاني السابقين وصياغتها باسلوبه الخاص(٩٦٥) . واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي :(٩٦٦)

جرى الخُلُفُ الاّ فيكَ أنكَ واحدٌ وانّكَ لسيثٌ والملوك ذئابُ
وأنّكَ انْ قُويستَ ضَحْفَ قارئٌ ذئاباً ولم يخطيْ فقال ذبابُ

اما موسيقى شعره فكانت رائعة . وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان

وما انا إلاّ سمهريٌّ حملتهُ فزيّنَ معروضاً وراعَ مُسدّدا
وما الدّهرُ الاّ من رواةِ قلائدي اذا قلتُ شعراً اصبحَ الدّهرُ مُنْشدا
فساربه من لايسير مشمراً وغنّى به من لايُغنّي مُغرّدا

أجزني اذا أنشدتُ شعراً فانّما بشعري اتاك المادحون مُردّدا
وذعْ كلَّ صوتٍ غير صوتي فانني انا الصائحُ المكحيُّ والاخرُ الصّدى

حكمه :

عاصر المتنبي فترة عصيبة من حياة امتنا في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة . وقد اكتسب تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الاحداث . وكانت حصيلة تلك التجربة . الى جانب ثقافته العميقة . حكماً بليغة سارت على الالسنة حتى قيل : « ماجتمع اثنان يتحدثان الاّ كان المتنبي ثالثهما » .

(٩٥١) شرح ديوان المتنبي ٢ ، ٣٧٨
(٩٥٢) نفسه ٢ ، ٣٦٠
(٩٥٣) نفسه ١ ، ٢٥٢
(٩٥٤) نفسه ١ ، ١٩٢ .

جاءت حكمه ضمن القصائد متلاحمة مع معانيها . لايحسُّ القارئُ بأنها غريبة او دخيلة . بل يراها ركائز جيدة تدعم معانيه وافكاره . واليك من ابياته التي اجراها مجرى الامثال في الحكم والاخلاق والتربية .(٩٥٥)

أعزُّ مكانٍ في الدُنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزّمان كتابُ

وقوله :

وكلُّ امريٍ يُولي الجميل محبّبٌ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيّبُ

وقوله :

اذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكتهُ وان انت اكرمت اللئيم تمرّدا

وقوله :

ومنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ يجدْ مُرّاً به الماءَ الزُلالا

وقوله :

خليلكَ انتَ لامَنْ قلتَ خلّي وانْ كثُرَ التجمُّلُ والكلامُ

وقوله :

منْ يهُنْ يسْهُلِ الهوانُ عليه مالجرح بميّتٍ إيلامُ

ومن انصاف الابيات قوله(٩٥٦) :

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ
اذا عظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعِدُ
أنا الغريقُ فما خوفي من البَلَلِ
ليس التكحُّلُ في العينينِ كالكَحلِ

وتجدر الاشارة الى ان المتنبي لم يكن فيلسوفاً . وانما له نظرات عميقة وحكيمة نظمها في اسلاك متينة وجذابة . اما ماذهب اليه ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي ان حكمه كلها مقتبسة من ارسطو . فاننا لاننكر تأثره بهذا الفيلسوف في حكمه التي تسربت الى اللغة العربية عن طريق الترجمة . ولكننا لانستطيع انْ نُجرّدَ الحكمَ كلها منه . فهو لبيبٌ فطنٌ . له تجاربه الخاصة . وقد تَلْتقي مجموعةٌ من هذه التجارب مع تجارب الاخرين .

يترشفنَ مِن فمي رشفاتٍ هنَّ فيه احلى من التَّوحيدِ

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه. وقوله:

اذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ جدارٌ مُعلّى او خباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المنطب بعد الجدار المنيف؟ بينا هو في الثريا صار في الثرى! وانما اراد الحاضرة والبادية(٩٦٣).

ومن مميزات شعره التماسك الشديد. والترابط الوثيق. وتسلسل الافكار وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية. مثل قوله معاتباً سيف الدولة:(٩٦٤)

ياأعدل الناسِ الاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمن شحمَه ورَمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره اذا استوتْ عندهُ الانوار والظُّلَمُ

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد. واستخدام الالفاظ الغريبة. والتصرف في اللغة. واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة. واخذ معاني السابقين وصياغتها باسلوبه الخاص(٩٦٥). واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي:(٩٦٦)

جرى الخُلْفُ الاّ فيكَ أنكَ واحدٌ وانّكَ ليثٌ والملوكُ ذئابُ
وأنّكَ انْ قُويستَ صَحْفَ قارئٌ ذئاباً ولم يخطيْ فقال ذبابُ

اما موسيقى شعره فكانت رائعاً. وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان والقوافي وملاءمتها للالفاظ والمعاني. الى جانب استخدام بعض الالوان البديعية مثل التصريع والجناس وحسن التقسيم ... فمن شواهد الجناس قوله(٩٦٧):